نظريات فى نشأة التطور الاخلاقى

وكيف أن الصعوبات تكون الافراد وأخلاقهم

للمربية الفضلى : السيدة نظلة الحكيم

ملاحظة : هذا المقال مقتطف من محاضرة ألقيت على الجمهور؛ وقد عالجت فيها الموضوع بطريقة عملية تمشياً مع روح التربية الحديثة ، فما تناولته من البحث فى نشأة التطور الاخلاقى لم يكن فى حد ذاته العامل الأساسى الذى حملنى على التفكير فى هذه الناحية، وإنما أساس تفكيرى فى هذا الموضوع قائم على مشاهداتى للتصرفات العملية لبعض الأفراد، ممن واجهوا كثيراً من عقبات الحياة ؛ ولقد لفت نظرى، بصفة خاصة فى البلاد الأوربية، نوع من معاملة الأمهات لأولادهن : ذلك أنى شاهدت فى بعض الأسرات أن الأم تختص بعطفها وحنانها ومساعدتها المادية ابنا واحداً أو بنتاً واحدة من بناتها ، وتهمل الآخرين إهمالا ظاهراً.

ولعل « مارى تريزا » أفضل مثال يخلده التاريخ لهذه الفئة من الأمهات، فانها قد تحيزت لبنت من بناتها إلى حد كبير، حتى أن الزائر لمعرض الأشياء التى كانت تستعملها، والذى يقام عادة بمدينة فينا، قد يجد لهذه البنت من التحف القيمة الشىء الكثير، مما هو أكثر شبهاً بتحف الملكة نفسها ، ولكنه قلما يعثر على شىء خاص بباقى بناتها .

ولكنى لاحظت أن النتيجة النهائية هى فوز مهضومى الحقوق ، لأنهم يأخذون على عاتقهم مسئولية حياتهم، ويندمجون فى سلك الحياة العملية، فيكشفون من أسرار الفن وأخلاق الناس ما يسلكون به السبيل السوى فى العمل والمعاملات.

لقد تبينت أن الذين يتحملون كثيراً من متاعب الحياة، يكونون فى الواقع أنفع من غيرهم ممن وجدوا كل شىء معداً لهم فحصلوا عليه بدون عناء ؛ وأرى أيضاً أن المجاهدين فى الحياة أمتن الناس أخلاقاً ، حتى اليائس منهم أفضله على غيره ممن تشجعوا فى الحياة، لا بفضلهم، بل بفضل ما وجدوه معداً لهم.

وأبناء الشقاء هم أيضاً أصحاب الخبرة وأولو التفكير الدقيق، ومن لا تفكير له لا حياة له؛ اللهم إلا حياة حيوانية ، والذى يحيا حياة حيوانية فهو أقل انتفاعاً بخيرات العالم من غيره، بل هو عالة على المجتمع الذى يعيش فيه . وفى نظرى أن الفرد الذى لا يستفيد من ميزته العقلية لهو أقل فائدة من دواب الحمل التى نستخدمها فى شتى الأعمال .

والآن أحاول أن أرسم صورة لحضرات القراء أصور بها الأنسان المفكر العامل، وإلى جانبه الانسان العالة، الذى لايتساوى حتى بدواب الحمل فى القيمة.

اعتاد الناس رسم خطوط بيانية للحرارة وغيرها حتى انهم وضعوا مقاييس للذكاء، ولم يتعرض أحد لعمل أى رسم بيانى للتطور الاخلاقى، فلنفرض أن الشكل الآتى يدلنا على بعض النسب المطلوبة :

مستوى الكمال المطلق

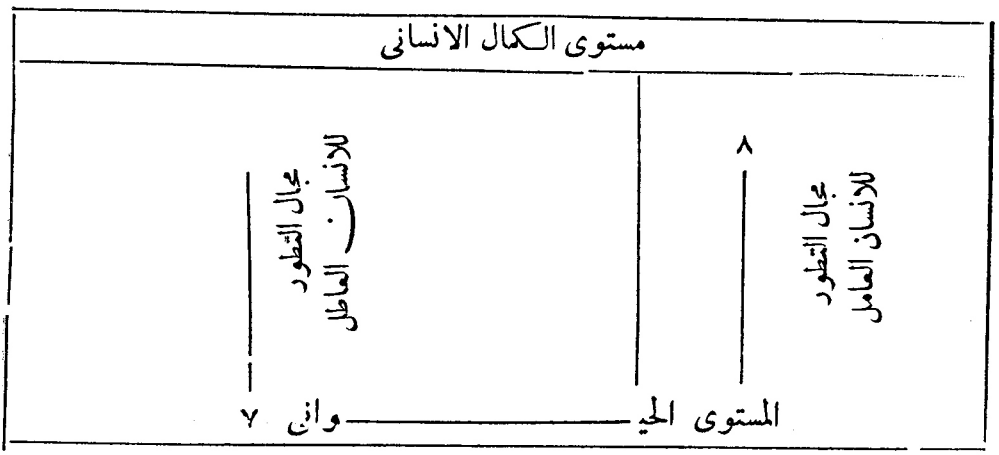

الآن دعونا ننظر إلى العالم كما صورته لنا العقول المفكرة التى أخذنا عنها كثيراً من مادتنا العلمية، ولتكن وجهتنا دائما الانتفاع بجميع ماوصلت إليه نهائيا مدارس الفكر على اختلاف نزعاتها، لأنى لاأريد أن أشهر حربا على جماعة المفكرين، بل أؤكد لحضراتكم أنه مامن شىء يؤلمنى أكثر من ذلك الخلاف الذى يحصل عادة بين كبار العلماء، فيندفع كل منهم إلى الاستئثار بمباحثه ووجهة نظره وقد يعادى غيره ، ولذلك تبع المفكرون طريقتين غير منتجتين :

١ ـ إما التغاضى عن نتائج مباحث الغير فى أية ناحية من نواحى العلم، فكان من نتائج ذلك تثبيط عزائم ذوى الهمم .

٢ ـ أو أنهم اتبعوا طرق النقد المرة بل القذف، ليدللوا على أن ما أورده فلان أو غيره إنما هو مجرد سخف ؛ ولكن على الرغم من ذلك كله فقد وصل العالم أخيراً إلى مرتبة عرف بها أنه من الضرورى إيجاد حلقات الاتصال بين مختلف النظريات، وهذه كانت من أعسر الخطوات سداداً، وأسعدها من حيث التقدم الخلقى فى العالم ؛ فان العناية ببحث وفحص نظريات الغير كانت أكبر العوامل التى ساعدت على احترام آراء الغير وتقدير جهودهم ، ولذلك نرى أنه كلما ارتقت الأمم، كانت الخصومة بين أفرادها دفاعا عن مبدأ لا للمشاحنات الشخصية. والحقيقة أنا إذا عرضنا أطوار الكائنات وانتقالها من طور إلى طور ، وجدنا أنه من الممكن أن يكون فى

المملكة الانسانية العالم المجد، والمفكر العظيم، عضداً لغيره من الأفراد الذين ساء حظهم فحادوا عن طريق الصواب، متأثرين إما بطبيعتهم فى حد ذاتها أو بعقول غيرهم؛ وقد يحيد المرء عما يعد صوابا فى زمنه لشذوذ فى طبيعته، هو فى الحقيقة معذور فيه، وهو فى هذه الحال يستحق عطف الغير ممن من الله عليهم بطبيعة هادئة سهلة .

أما من جهة التأثر بنتائج عقول الغير، فان الكثيرين يخطئون فى اتخاذ نتائج أفكار غيرهم وتطبيقها على أحوالهم الخاصة، ناسين أن ما يكون طعمة سائغة لأحد يكون سما زعافاً لغيره، أو كما يقول الانجليز: (One man's meat is another's poison)

وقبل أن أعرض أطوار نشوء الكائن أقول : إن الحياة عبارة عن مغالبة بين قوى الانسان وقوى الطبيعة الممثلة فى عوامل بيئته ، فعلى مبدأ بقاء الأصلح تتلاشى ضعاف الكائنات ولا يبقى إلا الكائن الذى تساعده قواه ومميزاته الطبيعية على الاستمرار فى حياته.

وكيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون استمراره فى حياته ؟

من الوجهة البيولوجية مؤيدة : فانه بنظرية التطور يمكننا أن نفسر أو نترجم حياة الكائن بما يأتى : ـ

الكائن فى أدنى أو أحط مراتبه هو مجموعة خلايا كمن فيها العامل الحيوى واستقر، وتولدت فيه نزعة إلى النمو، هذا إذا صادفه الجو المناسب لايقاظ هذا العامل الحيوى، والأمثلة هنا كثيرة وقريبة من العقل، فمثلا : حبة القمح بها عاملها الحيوى؛ فاذا وضعت فى التربة المناسبة نمت حسب طبيعتها ، وكذلك الحال بالنسبة للجنين فى أية بيضة ، فانه إذا وجد الجو المناسب له أخذ العامل الحيوى الذى تقوم عليه طبيعته فى الاستيقاظ تدريجاً حتى يستكمل نموه على حسب ما تتطلبه حياته، ولا يمكن للكائن من أى نوع أن يستمر فى نموه بدون تعدد فى خلاياه ، وتعدد الخلايا هذا يتبع قانونا خاصا يختلف باختلاف نوع الكائن؛ وعليه فتعدد خلاياه لا بد أن يكون مصحوباً بحفظ النوعية ، فالقطة لا تنمو لتصير قرداً ، ولا شجرة التفاح تنمو لتصير رنجيا فى الحديقة ؛ ومعنى ذلك أن من هذه الخلايا المتعددة تتكون وتتميز فى الكائن أجزاء أو أعضاء رئيسية ، وهذه الأجزاء تقوم تدريجاً بوظائف متناسبة مع ما تتطلبه حياة كل جزء فى ذاته وبمفرده، وكذلك لابد من أن تتناسب مع مصلحة جسم الكائن بصفة عامة، وإلا تعرقل نمو الكائن ولا يستطيع الاستمرار فى حياته .

وعلى ذلك نرى أن استمرار الكائن فى حياته ونجاحه يتوقفان على ما يبذله كل عضو من المجهود فى قيامه بوظيفته .

وعلى هذا الاعتبار تنحصر حياة الأعضاء فى هذه الرياضة العملية الفرضية ؛ وما الكائن فى الجملة إلا مجموعة من الأعضاء .

وقد قمت باجراء تجارب فى انجلترا وفى فرنسا لمعرفة مقدار تأثير عوامل البيئة، مما دل على أن لكل كائن عدوا إذا صح سميناه «صعوبة»، ففى اجتياز هذه الصعوبة يكون فوزه وارتياحه، وفى عدم اجتيازها يكون شقاؤه فموته ثم تلاشيه .

أجرينا تجارب على دودة القز وغيرها من الكائنات التى تتميز بأدوار معينة فى تاريخ حياتها ، كما أجرينا تجارب على النبات والانسان؛ أما فى حالة دودة القز وما يماثلها فانا لما وضعنا بعض العناصر المضرة بحياتها، وهى فى طور البيض، أتلفت الكثير منها، وذلك لأن درجة السبات أو النوم فى البيض، بحكم المرحلة التى قطعها الجنين، أكبر منها فى مرحلة أعلى – مرحلة الدودة مثلا ، أو مرحلتها بعد نسج الشرنقة؛ فلما وضعنا العناصر المضادة لحياتها قريبا منها حولت (الدودة) والفراشة وجهتها، وفعلا انتقلت من مكانها لأنها شعرت بشىء مضاد لطبيعتها واستقرت فى مكانها الجديد ولم تبرحه حتى أتى موعد خروجها كفراشة . ومباحث النبات أيضاً دلتنا على أن النبات له من القدرة ما يستطيع به تتبع الأشياء التى تساعده على حياته.

أما المباحث التى قمت بها فى بحث أحوال الانسان فقد قمت بها فى فرنسا مع عالم فرنسى؛ وكان جل غرض هذا الرجل أن يتحقق من النظرية الفرمنية أو الهورمية كما سماها «ماكدوجل» وهى النظرية القائلة بان طبيعة الكائن توصله إلى غرضه، وهو أن يحيا على حسب قوانين طبيعته.

وقد توصلنا إلى أن كثيراً من الحوادث التى تطرأ على صحة الجنين الانسانى وحياته ترجع إلى ما يؤثر عليه ويستثير فيه شعور الراحة والطمأنينة أو العكس .

وبناء على ذلك استنتجنا أن بذور الشعور بالسرور أو الألم تحصل فى حالة أولية فطرية منذ نشأة الكائن من أى نوع كان .

وعليه فخلاصة النظرية أنه إذا نجح الكائن فى التغلب على صعوبات بيئة، واستثمر ما بها من عوامل لمصلحته، كان له بطبيعته شىء من الفوز فى ميدان جهاده، وهذا الفوز يدعو إلى ارتياحه فيتنبه فيه ما نسميه شعور « السرور » بصفة أوضح كلما تقدم فى رقيه .

وهنا لا بأس من الاشارة إلى نظرية فسيولوجية نفسية تنبه اليها قديما «أرسطوطاليس» حيث قال : « إن السرور حليف النشاط المنتج، وترجمها بعض الانجليز إلى : Pleasure is the accompaniment of successful activity ومعنى ذلك أن المجهود الذى يعود بنتيجة مفيدة ومرضية يكون مشفوعا بشعور مريح تنشأ عنه فى مرحلة أرقى قوة التميز فالشعور بالسرور. وهذه النظرية تجمع بين مبدأين طرقهما أيضا بعض علماء الأخلاق من قدماء اليونان وغيرهم، وهما مبدأ المنفعة ومبدأ السرور ، إلا أنهم تغالوا فى النظرية بجعلهم السرور أساس كل عمل حتى بعد استكمال العقل، وطبعا اخطأوا فى زعمهم هذا، لأن شعور الارتياح فى مبدأ حياة أى كائن إنما هو ضرورى على حسب طبيعته، وهذا الشعور فى عناصر الكائن (أو فى طبيعته الأساسية) خلافه

بعد أن يصبح الانسان مسيراً حسب تفكيره الخاص،أو متأثرا بنتائج أفكار غيره وبما تتطلبه التقاليد السائدة والعرف المتداول .

إنما أريد أن أقول: إن المباحث العلمية دلت على أن الكائن متى نجح فى جهوده فانه يحيا حسب قوانين طبيعته ووظيفته،ولذلك قد استند جوزيف بتلر J · Butler (أحد مصلحى الانجليز) فى بحوثه الاخلاقية،فقرر أن أحسن عيشة يعيشها الانسان هى تلك التى يعيش فيها على حسب ما تتطلبه طبيعته،وهذا لا يكون إلا بارضاء طبيعة الانسان وإعطائها حقها ؛ ومن ذلك كان استمرار التضارب بين طبيعة البشر ومطالب التقاليد والعرف؛وضرر التقاليد هنا هو بعينه ما أشرت إليه من تأثير عقول الغير، لأن التقاليد هى تراث العقول السابقة،وهى قلما تناسب ظروف القوم فى الأزمنة الحاضرة . قال الامام على كرم الله وجهه: « لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم » .

إذن: فالوسيلة الوحيدة، التى يجب تطلبها ؛ لرقى الانسان هى أن يعمل قوى الفكر ويستغل ما وهبته الطبيعة من قوى ؛ والكائن متى نجح فى جهوده الجسمية والعقلية ليحيا الحياة التى تناسب طبيعته ووظيفته ، كان ذلك مدعاة إلى انتقاله من طور إلى آخر أعلى منه ،بل كان ذلك باعثا الى ايقاظ قوى شعوره وبذلك يبدأ فى مرتبة نمو يميز فيها ما يتناسب مع طبيعته ، وتكون نتيجته شعور ارتياح، وما لا يتناسب مع طبيعته وتكون نتيجته قلقا وعدم ارتياح؛ وفى الحالة الأخيرة ترشده قوة التميز إلى تحويل وجهته إلى ما يساعده على نموه وارتقائه النوعى ؛وهنا نجد السبيل ممهدا لقبول نظرية الانتخاب الطبيعى والذى يتفرع منه فى مرتبة أرقى الانتخاب الجنسى :فالانتخاب الطبيعى معظمه عار عن التفكير، بينما الانتخاب الجنسى يكون فيه العقل قد استكمل شيئاً من وحدته الذاتية؛ فالانتخاب الطبيعى هو المرحلة التحضيرية التى تمهد السبيل لمرحلة التميز،ومرحلة التميز هذه،أى التى تكون بين الاشياء أولا والاشخاص ثانيا، هى التى تضع الحجر الأساسى لعملية الطموح أو مرتبة النظر إلى المثل الأعلى الذى نستمد منه مبادئنا السامية ونسترشد به فى اتخاذ أصلح الوسائل .

ومعنى ذلك أن الكائن فى اطواره الأولى تكون قواه العقلية عبارة عن خاصة كامنة يظهر تأثيرها بطريقة تدريجية بطيئة،وقد دلت البحوث العلمية فى علم وظائف الاعضاء وعلم الحياة على أن قوة العقل تنمو نسبيا بنمو قوة تماسك الخلايا والأعصاب المخية، ولذلك كان الطفل الصغير فى قواه العقلية أقل منه فى الراشد أو الرجل ، ماعدا الحالات الشاذة طبعا،فالولد الامريكى الذى استكمل رجولته فى سن السابعة شاذ لا محالة .

وهنا يجب أن نسلم بأن المرتبة التى تبزغ فيها شمس العقل هى مبدأ المرحلة التى يصبح الانسان فيها يتميز بعملية التفكير وما يتبعها من شعور بالألم أو الارتياح عن الاخفاق أو النجاح .

ومن أثر المرحلة التى يقطعها الكائن على هذا النمط تنشأ فى الجسم فضيلة المثابرة على الكفاح والمقاومة .

(وقد كانت ، ولا تزال ، بعض الأمهات فى قبائل الاسكيمو تضع طفلها خارج الكوخ الثلجى ليلة كاملة عقب ولادته، فاذا عاش حتى الصباح أقبلت عليه الأم فرحة واعتنت بأمره لأنها تثق عندئذ بأنه سيكون رجلا ذا مناعة ومقاومة ، وأنه سيستطيع التغلب على صعاب الحياة ، وإذا وجدته ميتا فانها تسر أيضا حيث ترتاح من وجود فرد ضعيف لا يستطيع حماية نفسه، وسيكون بلا محالة عالة على غيره) .

هذه هى النزعة التى توجد بالفطرة عند من يشعرون بعظم مسؤولية الحياة، قد علمتهم الطبيعة درسا أخلاقيا، وحملتهم على التفكير فى أمر من سيكون عالة على غيره من افراد المجتمع .

من ذا الذى يظن أن هذه المدنية الفطرية أقل من مدنيتنا وقد قصرت مدنيتنا العظيمة (بالوهم) وسعة افكارنا عن اعطائنا هذا الدرس الاخلاقى ؟

لننظر إلى أعمال الحكومة وتصرف الرؤساء فى أى بلد، كم من منصب ذى مرتب ضخم أسند لمن ليست عندهم خبرة ولا مقدرة فكانت النتيجة أن ساءت الحال من جميع الوجوه وضاعت الأخلاق، واختل نظام العمل، وشعر العالم الجد بحيف أودى به إلى اليأس، وأصبحنا لا نعرف بعضنا البعض بألقاب الكفاءة فى العمل، وإنما بألقاب أخرى حديثة (كالمستر أو اللورد كذا أو المسيو فلان أو الباشا علان أو حسوب الرئيس كذا والمضطهد من حزب كذا أو فلان واسطته فلان الخ)

ألا فلنعمل على محو هذه الألقاب، ولتكن عند كل منا الشجاعة الأدبية ، فيقاوم هذا التيار المرذول الذى أودى بجهود الأفراد العاملين ، وأسقط مستوى الأخلاق إلى حد بليغ.

ما الأمة إلا بأفرادها، وما الأفراد إلا بأعمالهم، وما الأخلاق إلا ثمار الخبرة والعمل الشريف المكتسب عن جدارة واستحقاق .

إنما الأمم الأخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وسنتناول فى فرصة أخرى الكلام على ما وقفت عليه من نظريات فى هذا الموضوع الجليل ؛

نظلة الحكيم

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر ؛